بسم الله الرحمن الرحيم

" رسالة فى ليلة التنفيذ "
لهاشم الرفاعى

دراسة أدبية وفنية

د/ محمد محمد بظاظو
مدرس الأدب والنقد بكلية اللغة العربية
بإيتاى البارود

١ـ الشاعر نشأته وروافد إبداعه

هو السيد بن جامع بن هاشم بن مصطفى الرفاعى ، اشتهر باسم جده هاشم الرفاعى ؛ ولد فى " أنشاص الرمل " بمحافظة الشرقية ، فى مارس ١٩٣٥ ، حفظ القرآن صغيراً ؛ والتحق بالتعليم المدرسىّ ، ولكنه تركه بعد ذلك ، والتحق بمعهد الزقازيق الأزهرى . بدأ نظم الشعر وهو فى السنة الثانية الابتدائية بالمعهد ، وقاد المظاهرات ضد الاحتلال البريطانى ، وهو لا يزال طالباً ، وأصيب فى إحدى تلك المظاهرات برصاصة تركت أثراً فى أعلى رأسه ، وفصل أكثر من مرة بسبب ذلك أيضاً ، وحرم من امتحان الشهادة الثانوية الأزهرية عام ١٩٥٥ . ثم أعيد إلى معهده فى العام التالى ١٩٥٦ ، الذى حصل فيه على الثانوية ، ليلتحق بكلية دار العلوم ، واختير طالباً مثالياً للجمهورية عام ١٩٥٩ ، وذاع صيته فى مهرجانات الشعر بمصر والعالم العربى ، وقبل أن يتم دراسته فى دار العلوم ، وهو لا يزال طالباً فى السنة الثالثة ، عاجلته المنية ، حيث طعن فى الأول من يوليو ١٩٥٩ طعنات غادرة ، أودت بحياته ، فلقى ربه وهو لايزال فى ريعان الشباب ونضرته ، بعد حياة حافلة بالعطاء الشعرى المتدفق ، وقد رثاه أساتذة كليته ، وعميدها فى ذلك الوقت ، فى حفل تأبين له أقامته الجامعة [١] .

كما رثاه أخوه " أحمد الرفاعى " بقصيدة (أغنية لأخى الشهيد) يقول فيها مخاطباً مصر [٢] .

ومازال شاعرك الهاشمىّ ... سليل الحسين شجىَّ الغناء
وأنغامه قوة الثائرين ... على الظلم والقيد و الإفتراء
لقد كان حلماً جميلاً جليلاً ... وكان شهاباً معنى فى السماء
وما العمر طول السنين العجاف ... ولكنما العمر طول العطاء

---

(١) ينظر فى الترجمة للشاعر : ديوان هاشم الرفاعى (الأعمال الكاملة) ، تحقيق عبد الرحيم جامع الرفاعى / ٧-٩١ ط١ ، مكتبة الإيمان بالمنصورة ، ١٩٦٦ . وينظر أيضاً : مجدى الشهاوى : رسالة فى ليلة التنفيذ ، للشاعر الشهيد هاشم الرفاعى / ١١ ، مكتبة الإيمان بالمنصورة .

(٢) مقدمة الأعمال الكاملة / ١١.

٢ـ النونية واسطة العقد فى ديوان هاشم الرفاعى :ـ

يكاد يجمع النقاد الذين تعرضوا لشعر هاشم الرفاعى بالدراسة والتحليل على أن نونيته (رسالة فى ليلة التنفيذ) تعتبر واسطة العقد فى ديوانه ، فهى تمثل تحفة فنية فريدة ، وقمة من القمم الشامخة التى تسنم ذراها شاعرنا الملهم .

فقد خصها المرحوم الدكتور" محمد على داود " فى كتابه " هاشم الرفاعى ، اغتراب وألم " بدراسة مفردة ، تحت عنوان " القصة الشعرية والاغتراب "[١] .

كما تعرض لها الدكتور " رزق داود " فى بحثه عن " النزعات الوطنية فى شعر هاشم الرفاعى فقال : " وقد تجلت فى هذه القصيدة عبقرية الشاعر ، وعمق تجربته ، وصدق تعبيره ، ... واستطاع الشاعر بما اتسمت به قصيدته من الصدق الشعورى والفنى أن يحيل المتلقى إلى ثائر يود لو ينتقم من الطغاة والطغيان "[٢] ، كما دعا إلى أن تدرس هذه النونية ، دراسة مستقلة ((لكونها تجمع حولها كثيراً من خيوط عصرها ، بما تضمنت من قيم فنية عالية))[٣] .

والحق أن ذلك بعض ما دعانى لتوجيه همتى إلى دراسة تلك الدرة الرائعة ، التى فاضت بالقيم الجمالية ، لفظاً ، وأسلوباً ، وتصويراً ، وإن أقوى الأدلة على ذلك أنك ما تكاد تقرؤها ، حتى تنقلك نقلاً إلى أجواء التجربة التى عاناها الشاعر ، وما تكاد تنتهى من قراءتها حتى يفعم قلبك بمشاعر الإشفاق الممزوج بالإكبار لذلك الشهيد ، وبالقدر ذاته تضطرم نفسك غيظاً ونقمة على ظالميه.

والقصيدة حين تصل بالمتلقى إلى ذلك المستوى الشعورى ، فإنها – بلا شك – تحقق الهدف الأمثل لكل عمل فنى ، وهو العدوى التأثيرية للحالة الشعورية ، من المبدع إلى المتلقى ، ولعل هذا هو ما كان يرمى إليه شاعرنا – رحمه الله حين كتب تلك اللوحة الفنية الرائعة .

وبقاء القصيدة بقدرتها التأثيرية الفائقة على امتداد الأجيال بعد وفاة شاعرنا إلى اليوم – وإلى ما شاء الله – دليل على اكتنازها بالقيم الشعورية والفنية ، وعلى أنها من ذلك الأدب الإنسانى الخالد ، الذى يتجاوز حدود الزمان والمكان والأحداث ، إذ يخاطب فى " الإنسان " –

---

(١) د . محمد داود : هاشم الرفاعى اغتراب وألم / ١١٣ .

(٢) مجلة كلية اللغة العربية بدمنهور ، العدد السادس /٢٣٦ .

(٣) السابق / ٢٤٣ .

كل إنسان – أخص خصائصه ، وهى إحساسه بالحرية والكرامة ، التى هى هبة من ربه ، والتى لا يمكن أن يبغى بها بديلاً ، والتى يضحى فى سبيلها بكل رخيص وغال ، وقديماً قال الفاروق – رضى الله عنه – " يعجبنى الرجل إذا سيم خطة ضيم أن يقول : " لا " ، بملء فيه " ، وينسب إلى بعض علمائنا تلك النفثة الحرة ، التى يقول فيها : [1]

أنا إن عشت لست أعدم قوتاً وإذا مت لست أعدم قبرا

همتى همة الملوك ونفسى نفس حُر ترى المذلة كفراً

ومن المناسب هنا ، أن نذكر النص الكامل لنونية الرفاعى ، حتى يعايشنا القارئ الكريم فى مراحل تحليلها .

---

(1) ديوان الإمام الشافعى / ٦٦ ، مكتبة ابن سينا ، القاهرة .

يقول هاشم الرفاعى : [1]

أبتاه .. ماذا قد يخط بنانى ... والحبل والجلاد منتظران ؟
هذا الكتاب إليك من زنزانة ... مقرورة صخرية الجدران
لم تبق إلا ليلة أحيا بها ... وأحس أن ظلامها أكفانى
ستمر يا أبتاه - لست أشك فى ... هذا - وتحمل بعدها جثمانى
الليل من حولى هدوء قاتل ... والذكريات تمور فى وجدانى
ويهدِّئنى أملى فانشد راحتى ... فى بضع آيات من القرآن
والنفس بين جوانحى شفافة ... دبّ الخشوع بها فهزّ كيانى
قد عشت أومن بالإله ولم أذق ... إلا أخيرا لذة الإيمان
شكراً لهم أنا لا أريد طعامهم ... فليرفعوه فلستُ بالجوعان
هذا الطعام المرّ ما صنعته لى ... أمى ، ولا وضعُوه فوق خوان
كلا ، ولم يشهده يا أبتى معى ... أخوان لى جاءاه يستبقان
مدُّوا إلىّ به يداً مصبوغة ... بدمى، وهذى غاية الإحسان

****

والصمت يقطعه رنين سلاسل ... عبثت بهن أصابع السجان
ما بين آونة تمر وأختها ... يرنو إلى بمقلتى شيطان
من كوة بالباب يرقب صيده ... ويعود فى أمن إلى الدوران
أنا لا أحس بأى حقد نحوه ... ماذا جنى فتمسه أضغانى ؟
هو طيب الأخلاق مثلك يا أبى ... لم يبد فى ظمأ إلى العدوان
لكنه إن نام عنى لحظة .... ذاق العيال مرارة الحرمان
فلربما وهو المروع سحنة ... لو كان مثلى شاعراً لرثانى
أو عاد-من يدرى- إلى أولاده ... يوماً، وذكر صورتى لبكانى

****

([1]) ديوانه (الأعمال الكاملة) / ١٦٦

وعلى الجدار الصلب نافذة بها ... معنى الحياة ، غليظة القضبان
قد طالما شارفتُها متأملاً ... فى الثائرين على الأسى اليقظان
فارى وجوماً كالضباب مصوراً ... ما فى قلوب الناس من غليان
نفس الشعور لدى الجميع وإن هم ... كتموا، وكان الموت فى إعلانى
ويدور همس فى الجوانح ، ما الذى ... بالثورة الحمقاء قد أغرانى ؟
أو لم يكن خيراً لنفسى أن لى ... مثل الجميع ، أسير فى إذعان؟
ما ضرَّنى لو قد سكتُّ ، وكلّما ... غلب الأسى بالغت فى الكتمان ؟
هذا دمى سيسيل يجرى مطفئا ... ما ثار فى جنبى من نيران ..
وفؤادى الطوار فى نبضاته ... سيكف فى غده عن الخفقان
والظلم باق ، لن يحطم قيده ... موتى ، ولن يودى به قربانى
ويسير ركب البغى ليس يضيره ... شاة إذا اجتثت من القطعان

****

هذا حديث النفس حين تشف عن ... بشريتى وتمور بعد ثوان
وتقول لى ، إن الحياة لغاية ... أسمى من التصفيق للطغيان
أنفاسك الحَرى-وإن هى أخمدت- ... ستظل تغمر أفقهم بدخان
وقُروح جسمك وهى تحت سياطهم ... قسماتُ صُبح يتقيه الجانى
دمع السجين هناك فى أغلاله .. ... ودم الشهيد هنا - سيلتقيان
حتى إذا ما أفعمت بهما الرّبى ... لم يبق غير تمرد الفيضان
ومن العواصف ما يكون هبوبها ... بعد الهدوء وراحة الرُّبان
إن احتدام النار فى جوف الثرى ... أمر يثير حفيظة البركان
وتتابع القطرات ينزل بعده ... سيل ، يليه تدفق الطوفان
فيموج يقتلع الطغاة مزمجراً ... أقوى من الجبروت والسلطان

****

أنا لست أدرى هل ستذكر قصتى ... أم سوف يعروها دجى النسيان ؟
أو أننى ساكون فى تاريخنا... ... متآمراً أم هادم الأوثان
كل الذى أدريه أن تجرعى ... كاس المذلة ليس فى إمكانى
لو لم أكن فى ثورتى منطلباً ... غير الضياء لأمتى لكفانى
أهوى الحياة كريمة ، لا قيد ، لا ... إرهاب، لا استخفاف بالإنسان
فإذا سقطت سقطت أحمل عزتى ... يغلى دم الأحرار فى شريانى

****

أبتاه إن طلع الصباح على الدُّنى ... وأضاء نور الشمس كل مكان
واستقبل العصفور بين غصونه ... يوماً جديداً مشرق الألوان
وسمعت أنغام التفاؤل ثرةً ... تجرى على فم بائع الألبان
وأتى يدق - كما تعود - بابنا ... سيدق باب السجن جلادان !
و أكون بعد هنيهة متارجحاً ... فى الحبل مشدوداً إلى العيدان
ليكن عزاؤك أن هذا الحبل ما ... صنعته فى هذى الربوع يدان
نسجوه فى بلد يشع حضارة ... وتضاء منه مشاعل العِرفان
أو هكذا زعموا، وجيئ به إلى ... بلدى الجريح على يد الأعوان

****

أنـا لا أريـدك أن تعيـش محطمـاً ... فـى زحمـة الآلام والأشجـان
إن ابنـك المصفـود فـى أغـلاله ... قد سيق نحو الموت غير مُدان
فـاذكر حكايـات بايـام الصبـا ... قد قلتـها لى عن هوى الأوطان
وإذا سمعت نشيح أمى فـى الدّجى ... تبكى شـبابا ضـاع فـى الريعـان
وتكتـم الحسـرات فـى أعماقـها ... أطـا تواريـه عـن الجـيران ..
فـاطلب إليـها الصفـح عنـى إننـى ... لا أبتغى منـها سـوى الغفـران
مـازال فـى سمعـى رنـين حديثـها ... ومقالهـا فـى رحمـة وحـنان
أبنـى ، إنـى قـد غـدوت عليلـة ... لم يبـق لى جلد علـى الأحـزان
فـاذق فؤادى فرحة بالبحـث عن ... بنت الحلال ودعك من عصيانى
كانت لها أمنية .. ريانـة ... يا حسن آمال لها وأمـالى
غزلت خيوط السعد مخـضلا ولم ... يكن انتقاص الغزل فى الحسبان
والآن لا أدرى باى جوانـح ... ستبيت بعدى أم باى جَـنان؟
هذا الذى سطرته لك يا أبـى ... بعض الذى يجرى بفكر عـان
لكن إذا انتصر الضياء ومزقـت ... بيد الجموع شريعة القرصـان
فلسوف يذكرنى ويكبر همـتى ... من كان فى بلدى حليف هـوان
وإلى لقاء تحت ظل عدالـة .. ... قدسية الأحكام والميـزان

****

٣ـ منبت القصيدة :ـ

اختلفت آراء الذين أرخوا لحياة هاشم الرفاعى ، حول التوقيت الزمنى الذى أبدع فيه نونيته ، والأحداث التى أوحت إليه بمضمونها ، فمنهم من يرى أن الشاعر قد كتبـها فى عـام ١٩٥٨ [١] ، وهو العام الذى ألقاها فيه ، فى مـهرجان الشـعر بكليـة دار العلـوم مسـاء ١٩٥٩/٣/١٦ ، وقد ألقاها مرة أخرى فى العام التالى فى مهرجان الشعر العربى بدمشق ، مـايو ١٩٥٩ ، وقبل مصرعه بأقل من شهرين .

---

(١) محمد كامل حته ، فى تحقيقه لديوان هاشم الرفاعى / ٤٢ ، ط وزارة التربية والتعليم .

بينما يرى " عبد الرحيم الرفاعى " شقيق الشاعر ، فى تحقيقه لديوانـــه ، أن الشـــاعر كتب النونية فى عام ١٩٥٥، ولم يظهرها للنور . إلا حين سنحت الفرصة بإلقائها فى مـــهرجان الشعر بدار العلوم ، ومن بعده مهرجان الشعر بدمشق ، المذكورين آنفاً .

يقول " عبد الرحيم الرفاعى " : " وقد أطلعنى مع بعض من يثق فيهم من زملائه علـى بعض قصائد ديوانه (جراح مصر) ، فى زيارتى هذه له بالزقازيق [1] ، وقد بلغ قمة الغضـــب والثورة فى قصيدته الشهيرة (رسالة فى ليلة التنفيذ) ، وسط جو الضيق النفسى فى هذه الفـــترة ، على أثر رسالة تلقاها من زميل له ، ينتظر تنفيذ حكم الإعدام ، ويوصى الشاعر بأن يسرى عن والدى السجين ، فألهمته هذه الرسالة ، وأوحت إليه بقصيدته ، التى جاءت فى قمة ما كتـــب الشاعر [2] " .

والمتفحص فى الروايتين لا يرى بينهما تعارضاً ، لأن شقيق الشاعر أقرب إلى الظـــروف ، وأعرف بالأحداث التى مرت بشقيقه ، أما غيره فتاريخ ظهور القصيدة عنده هو تاريخ منبتـها ، ما لم يدل دليل على إبداع الشاعر لها قبل ذلك التاريخ .

والذى أنشأ هذا الخلاف ، هو أن القضية التى أثارتها القصيدة ، قضية إنسانية عامـــة ، تتجاوز الزمان ، والمكان ، والحدث ، لتحلق فى آفاق بعيدة ، تشغل " الإنسان " ، أياً كان جنسه أو لونه ، " الإنسان " الذى يدافع عن أقدس ما وهبه الله ، وهو حريته وكرامته .

مع إيماننا بأن رائعة كهذه ، لا يمكن أن تجود بها القريحة ، إلا إذا وقع الشـــاعر تحـــت مؤثر قوى ضاغط ، وكانت الأحداث والظروف التى تضمنتها قد أحاطت به ؛ أو بأقرب الناس إليه ، هذا ما يشهد به تاريخ الفن ، وتؤكده سير الشعراء فى تاريخنا الأدبى .

---

(١) يتحدث عبد الرحيم الرفاعى هنا عن العام الدراسى ١٩٥٥ - ١٩٥٦، وهو العام الأخير للشاعر بمعهد الزقازيق .

(٢) الأعمال الكاملة / ٦٢ .

٤ـ تحليل النونية :ـ

نظرة عامة :ـ

لاشك أن المتفحص لنونية الرفاعى ، يجد أنها قد جاءت على وزن (الكامل) ، وهو الذى يتكون البيت فيه من تكرار الوحدة الموسيقية (متفاعلن) ست مرات ، وقد حرص الشاعر على الالتزام الكامل بقواعد الموسيقى العروضية ، فالتزم بالوزن والقافية المطَردين على امتداد القصيدة ، مما يؤكد لنا أصالة الفن عند الشاعر ، وتمسكه بالتراث الأدبي العربى ، بكل ما يحمل من قيم فنية أصيلة .

وليس هذا الالتزام بعمود الشعر العربى الموسيقى – وزناً وقافية – إلا شكلاً من الأشكال ، التى انعكس فيها التزام الشاعر الفكرىّ ، وظهرت فيها شخصيته ، وتمثلت فيها مرجعيته .

والقصيدة بعد ذلك ، كتلة واحدة ، ينتظمها خيط شعورى ونفسى واحد . وتتسلسل الأفكار فيها تسلسلاً منطقياً ، مترابطاً ، يأخذ بعضها بعنق بعض ، دون تخلخل أو اضطراب .

فالنونية – فى أصل فكرتها – رسالة ، بعثها ابن لأبيه ، من وراء القضبان . فى آخر ليالى الابن فى هذه الدنيا ، وتمثل هذه الرسالة محور القصيدة ، الذى عليه ترتكز كل الأفكار ، وتدور حوله كل المحاور ، وتتجمع عنده كل خيوط الإشعاعات الفكرية والشعورية فى القصيدة ، نرى ذلك من خلال مايلى :

فى البدء يقدم لنا الشاعر صورة مرئية لزنزانته ، التى سطر فيها تلك الرسالة . ويصف فى تلك الصورة الزمان (الليل) ، والمكان (الزنزانة) ، والحالة النفسية التى كانت تتغشاه فى تلك اللحظة .

ثم ينتقل انتقالاً طبيعياً – إلى ما حوله فى الزنزانة ، من طعام مر المذاق ، لأنه مقدم بيد مصبوغة بدم المظلومين ، ويخرج بنا من باب الزنزانة الحديدى الموصد ، إلى السجان الذى يتفقد سجينه كل حين ، وتعبث يده بالسلاسل الحديدية المكبلة لباب الزنزانة ، وهو ينظر من كوة الباب ، ويرينا الشاعر – بالرغم مما هو فيه من محنة – صفاء نفسه ، ورقة قلبه وترفعه عن أن ينزل إلى حضيض الكراهية لظالميه ، وسموه إلى عالم من المشاعر والأخلاق ، لايرقى إليه إلا القليل – من خلال وصفه للسجان بأنه " طيب الأخلاق " !!

ويحاول الشاعر أن يقفز خارج إطار زنزانته المظلمة ، بل خارج دائرة سجنه ، فيرفع بصره إلى النافذة الصغيرة الوحيدة ، التى تشعر السجين بأنه لازال هناك حياة وأحياء ، ويتملى – وهو يتارف النافذة – وجوه الناس ، الذين ينعمون بالحرية الشكلية : خارج السجن ، ويرى الوجوم على الوجوه ، ينم عن شعور دفين بالظلم ، وتطلع إلى الثورة عليه ، ويعود إلى نفسه فى تلك اللحظة ، موازناً بين حاله وهو سجين ، وحال هؤلاء الطلقاء : ويشعر باللوم والتأنيب للنفس حيناً ، ثم تستفيق نفسه على نداء الهمة العالية ، والعزيمة الماضية ، فتزول غشاوة التأنيب واللوم ، على ضريبة لايدفعها إلا كل عزيز كريم ، على أكتاف أمثاله تقوم النهضات ، وبتضحياته يندحر الظلم ، ومن قروح جسمه المعذب ، يتشكل الصبح القريب ، ومن دموعه ودمائه يفور الطوفان ، مزمجراً ، كاسحاً فى طريقة الطغيان .

وكما استشعرت نفسه بعض اللوم على ثورته حيناً ، ثم استفاقت على نداء الهمة ، استشعرت – أيضاً – الخوف من تشويه صورته ، وتلطيخ سمعته ، بما يجيده كثيرون ، من أساليب الاختلاق والتلفيق ، لكنه يطرد هذه الوساوس عن نفسه ، ويستعلى عليها ، فما يضر الشاة سلخها بعد ذبحها : ويعلن فى لهجة التحدى مبدأه الذى استعد للتضحية فى سبيله بحياته ، ورسالته التى كرس لها كل ما يملك ، إنها رسالة الدفاع عن " كرامة الإنسان " وحريته .

وبعد هذه الجولات ، التى أطلعنا فيها الشاعر على عالمه الخارجى (الزنزانة والسجن) وعالمه الداخلى (خواطر النفس وتقلبها) . ما بين هبوط وعلو ، وارتقاء وإسفاف ، وخمود وهمة) – بعد ذلك ، يعود الشاعر إلى والده ، مجدداً ما استطال من خيط الحديث فى رسالته ؛ فيناديه للمرة الثانية فى الرسالة (أبتاه) ، ويتذكر بنداء أبيه قريته ، التى يشيع فيها النور من الشمس و لنفس معاً ، ويعقد تلك المقارنة بين نور قريته وظلمة زنزانته . بكل ما فى النور والظلمة من معانى النفس والمادة ..

وحين ذكر أباه ، داخلته اللوعة ، من شدة إشفاقه على الوالد المعنَّى ، بمحنة ولده . فأخذ يعزيه ، مذكراً إياه بمعانى الهمة ، وثوابت الرجولة والعزة ، التى أرضعها له صغيراً ، ونشأه عليها كبيراً.

وينتقل الشاعر – انتقالاً طبيعياً – من أبيه البار إلى أمه الرؤوم . الموهة القلب ، الممزقة الكبد ، تحرقاً على ولدها ، المغيب فى ظلمات السجون ، ويرينا إياها وهى تطل من بين الأحزان

بابتسامتها الحنون ، فى صورة من الصور المشرقة ، يسترجعها ذهنه من الماضى القريب ، ترجوه فيها أن يسعدها بالزواج ، وتلذعه المفارقة بين الأمنية والواقع ، فيطوى عليها حناياه ، دامعاً متألماً.

ومن بعد توصيف الواقع المظلم ، لابد من التطلع إلى غد مشرق ، تحيا النفس فى ظلاله ، تستروح فيه من عناء المحنة ...

نعم ... فمهما طال الليل لابد من طلوع الفجر ، وعندها سيفرح الأحرار بثمرة ما قدموا من تضحيات ، أما الشاعر ، فإنه إن ظلم فى دنيا الناس ، فسينصف فى محكمة قدسية ، حكمها العدل سبحانه ، من لا تخفى عليه خافية ، تعتدل عنده موازين الدنيا التى أمالها البشر ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ؟

وبهذه النظرة العامة إلى النونية ، ينكشف لنا الخيط الشعورى والنفسى الذى ينتظمها ، والذى يشكل منها وحدة موضوعية وفنية ، تتمثل من خلالها القصيدة ، كياناً حياً متناسقاً.

ونعود – بعد ذلك إلى تحليل مفصل للجوانب الفنية ، فى كل جزء من أجزاء القصيدة على حدة ، لتظهر لنا معالم الأداء المتميز ، فى هذه الدرة الرائعة

ويتبين لنا من خلال تتبع الخيط الشعوري فى النونية ، أنها تشكلت من عدة أجزاء ، فقد بدأها الشاعر بمقدمة ، كما تبدأ كل الرسائل ، يصف فيها الزمان والمكان ، والحال الذى تغشاه وهو يسطر رسالته ، ثم انتقل إلى وصف طعام السجن ، ثم وصف ملامح السجان ، والحديث عن نافذة الزنزانة ، ثم حديث النفس وهى تلوم صاحبها على الثورة ، ومن بعدها انتفاضة الهمة ، وإعلان المبدأ الذى لأجله يُضحى ، وينتقل بعد ذلك إلى وصف " الصبح " بين مطلعين ، مطلعه فى الزنزانة ، ومطلعه فى قريته ، حيث والداه وأهله ، وهنا تأتى المناسبة لمواساة الوالدين على مصابهما فى محنة ولدهما السجين ، وتختم النونية بانبعاثة الأمل ، تبدد ظلمة المحنة .

وها نحن نعرض لهذه الأجزاء بشىء من التفصيل ...

ـأ ـ

بين لذعة الامتحان ولذة الإيمان

أبتاه .. ماذا قد يخط بنانى ... والحبل والجلاد منتظران ؟
هذا الكتاب إليك من زنزانة ... مقرورة صخرية الجدران
لم تبق إلا ليلة أحيا بها ... وأحس أن ظلامها أكفانى
ستمر يا أبتاه - لست أشك فى ... هذا - وتحمل بعدها جثمانى
الليل من حولى هدوء قاتل ... والذكريات تمور فى وجدانى
ويهدنى ألمى فانشد راحتى ... فى بضع آيات من القرآن
والنفس بين جوانحى شفافة ... دب الخشوع بها فمز كيانى
قد عشت أومن بالإله ولم أذق ... إلا أخيرا لذة الإيمان
شكرا لهم أنا لا أريد طعامهم ... فليرفعوه فلست بالجوعان
هذا الطعام المر ما صنعته لى ... أمى، ولا وضعوه فوق خوان
كلا ، ولم يشهده يا أبتى معى ... أخوان لى جاءاه يستبقان
مدوا إلى به يدا مصبوغة ... بدمى، وهذى غاية الإحسان

****

فى هذا الجزء ، الذى بدئت به القصيدة ، نرى الرفاعى يصور لنا المشاعر التى كانت تغمره ، وهو يسطر رسالته الشعرية إلى أبيه ، تنبعث من بين أحناء المحنة ، التى يكتوى بها .

ففى ندائه (أبتاه) نرى " الألف الممدودة " ، بعدها " الهاء " ، حث يمتد معهما الهراء ، منفسا عن آلام الشاعر المكروب ، وكأنما يرتمى فى أحضان الحنو الوالدى ، لائذا من الجحيم . فكأن مجرد ذكر والده ، يمثل استرواحة يلتقط فيها أنفاسه ، ويستشعر فيها الأمان والطمأنينة . ولعل هذا هو سر استغنائه عن أداة للنداء فى هذا المقام .

وفى قفزة شعورية ، من واحة الأمان التى بسطها ذكر والده ، إلى زنزانة الرعب التى يعيش فيها آخر لياليه ، نراه يسوق ذلك الاستفهام الموحى بالحيرة والأسى ، والمثير للشفقة والحزن ، من خلال تلك المقارنة بين استرواحة الأمان فى رحاب الوالد ، وبين ارتقابه للحبل والجلاد ، يتلقفانه بعد حين .

وكأنى به قد تخيل صورة والده – ببسمته الحنون ، وهدوئه الذى يسكن له كل ما حوله ، ونظراته المفعمة بالود – فانبسطت أساريره ، فى لحظة خاطفة عاشها فى الخيال . ولكن .. ما لبث أن عاد إلى واقعه المرير ، فانكفأ على نفسه متألماً ، وهو يطالع عناصر هذا الواقع .. الحبل .. الجلاد .. الجدران الصخرية .. والقلوب التى لاتقل عنها قسوة .

ويجب على المؤدّى للقصيدة أداءً صوتياً ، أن يتوقف برهة بعد كلمة (أبتاه) ؛ هذا التوقف تترجمه رسما النقطتان اللتان بعد هذه الكلمة ، ليمثل ذلك فاصلا ، بين مضمون النداء وإيحاءاته ، ومضمون الاستفهام ودلالاته .

و " قد " التى تضمنها الاستفهام ، والواقعة بين " ماذا " والفعل المضارع ، لها دلالتها وضرورتها فى الأسلوب .

فهى – بوجودها معترضة وسط الاستفهام – تشعر بطول الجملة ، وحين يضاف لذلك دخولها على المضارع – وهو يفيد التقليل غالباً – نشعر أننا أمام نفس مكلومة . عندها القيد ، وضعضعتها المحنة ، فهى لاترى فى تسطير الرسالة متنفساً أو مستراحاً . وأنى لها ذلك ..؟ ومن ورائها شبح الموت الجاثم ، ومذبحة الجلاد المتربص

وإذا كانت الرسائل تكتب فى ساعات المحن ، استرواحاً للنفس ، وتخفيفاً من معاناتها ، واستمداداً للعون من الطلقاء .. فإن الشاعر لايكاد يرى فى رسالته شيئاً من ذلك . فقد أطاحت به المحنة ، واستوعبت أقطار نفسه ، وجثمت عليها بكلكلها ، فما يستطيع منها فكاكا ، وهاهو جسم المحنة – ممثلاً فى الزنزانة ، والحبل والجلاد – موكل به ليل نهار ، لايبارحه .

أما "الحبل" و " الجلاد " فهما أقرب المفردات إلى محنة السجن ، بحيث يستدعيان بمجرد ذكرهما جو الزنزانة الخانق ، ومرآها الكئيب ، ولذا اختارهما الشاعر – من بين مفردات قاموس المحنة ، فاستغنى بهما عن الإطالة والإسهاب .

وصياغة آخر كلمات البيت على اسم الفاعل (منتظران) ، يوحى بالدوام والاستمرار ، وفى إسنادها إلى (الحبل والجلاد) تشخيص يبرزهما ملازمين لايبرحان ، يتوعدانه بالشر كل حين ، ويثيران الرعب فى نفسه المفزّعة . كلما استروحت قراراً أو حاولته وسعت إليه .

ثم يأخذ الشاعر – بعد هذه النفثة الحارقة – فى رسم صورة المكان ، فـــهو – وإن لم يجد فى الرسالة مستراحاً ، وإن طاردته عناصر المحنة المفزعة كل حين – يحاول أن يخرق حجبـــها الكثيفة ؛ وأن يرسم بريشته تفاعله مع الزمان والمكان .

أما المكان فـــ (زنزانة) ، والكلمة تدل على انفراده فى السجن ، حيث لا مؤنـــس ولاجليس ، فهى لا تكاد تتسع لأكثر من واحد . وتزداد كثافة المحنـــة ، بتـــصور تلـــك الزنزانة (مقرورة) تمد الرطوبة ألسنتها اللاهبة ، من أنحائها ، أرضاً وجدراناً ، لتنخر فى جســم السجين ، وهو لايملك منها مهرباً ، ولا يجد منها سترا أو ملاذا .

واختيار وصف (صخرية) للجدران ، يشعر بإحساسه العميق بضخامـــة الجـــدران والتصاقها به ، وقسوتها على جسمه وقلبه معاً ، فكأن صخورها تطبق على قلبه ، وتكاد تكتـــم انفاسه .

وهذا هو إيحاء معنى (الصخر) القاسى ، الغليظ ، الشديد ، وإلا فمن أى شيء تبـــنى جدران سوى الصخور ، بأنواعها ودرجاتها ؟ فللصخرية هنا مدلولاً آخر ، يتجـــاوز المعـــنى المادى الملموس .

وأما الزمان فـــ (ليل) ، بل (ليلة) ، والإفراد هنا مقصود لأنها الليلـــة الأخـــيرة ، يتهيأ فيها الشاعر للنهاية المحتومة المترقبة ؛ حتى ليكاد ينقلب ظلامها له كفناً وصبحها له قبرا .

وفى وحشة الليل ، تجتمع الهموم على النفس ، وتجيش بها الذكريات ، وإذا كان الليـــل الهادئ هو وقت الراحة والسكون ، فإن ليل المظلومين والمهمومين هو داعى الأرق والشجون .

فهدوء ليل السجن – وإن كان فى ظاهره سكون للأبدان – هو فى الحقيقـــة مفعـــم بحركة المشاعر والوجدان ، وما أجمل تلك المقابلة ، بين الهدوء فى عالم المـــادة و " المـــور " فى عالم النفس :

الليل من حولى هدوء قاتل	والذكريات تمور فى وجدانى

واختيار كلمة (تمور) هنا ذو دلالة خاصة ، فليس ليل السجين هو ذلك الليل الحالم ، الـــذى تتداعى فيه الأفكار والمشاعر ، الواحدة تلو الأخرى ، إنما هو اصطراع فى عالم النفس ، حيـــث تتلاقى الأفكار ، يصدم بعضها بعضاً ، وتلغى إحداها الأخرى ، فى قفزات تشبه إلى حد كبـــير

غليان الماء فى القدر ، وقد جاءت الكلمة فى كتاب الله – عز وجل – معبرة عن لقطـــة مـــن لقطات يوم الفزع الأكبر (يوم تمور السماء مورا)[1] .

وتنازع الأفكار ، واضـــطراب المشاعر . يشتت النفس ويضنيها ، فيعود الســـجين – بعد رحلة الذكريات الصاخبة ، المقلقة المتصارعة ، ليستروح أنفاسه فى ظلال آيـــات الله – سبحانه – فهى معين اليقين ، ومصدر الثقة والطمأنينة ، إليها تأوى النفوس المكلومـــة ، التى ألهبها هجير الحياة ، تطلب فى أفيائه راحة الإيمان ، وروح الرحمن .

والمحنة ترقق النفس ، وتجعلها أكثر استعدادا للانتفاع بالهدى الربانى ، فإن عطـاء الله – تعالى – فى كتابه ، إنما يتنـــزل على من تهيأ له ، بانكسار قلبه ، وخشوع نفسه ، " الله نـــزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلـــين جلودهـــم وقلوبهم إلى ذكر الله " [2] .

وفى تلك اللحظات الخاشعة الهادئة – وما أسعدها من لحظات – يخرج العابد من زمان الدنيا ، ليدخل فى زمن هو إلى الآخرة أقرب ، تغسل نفسه فيه من أوضـــار الأرض وأثقالهـــا ، وترقى صاعدة إلى الملأ الأعلى ، تستشرف النور السماوى ، فتجد من لذات الروح ما يربـــو على كل الملذات الأرضية .

هنالك تهون كل المحن ، وتصغر فى عين العابد دنيا الناس ، بلعبها ولهوهـــا ، وزينتـــها وتباهيها ، وقضها وقضيضها ، وظلمها وتسلطها ، وبهرجها وزيفها ، ... ذلك حين يجد العـــابد حلاوة الإيمان .

ويستغنى العابد الممتحن بالزاد الروحى الربانى ؛ عن زاد الدنيا ، فهو فى معية ربـــــه ؛ يطعمه ربه ويسقيه ، فلا يلتفت إلى الفتات الذى يسميه ظالموه طعاما ، إنه يشعر بمرارته من قبل أن يذوقه ، لأنه صنع بيد ملطخة بدماء الشهداء ، يد غصبت عرق المكدودين ، وكممت أفواه الأحرار .

---

(1) الطور / ٩ .

(2) الزمر /٢٣ .

وفى لفتة سريعة إلى الماضى القريب ، يوازن الشاعر بين فتات السجن ، الذى يلقى بـه على الأرض كطعام الحيوانات ، وبين المائدة التى كانت تصنعها أمه ، ويشـــاركه فى الجلـوس عليها أخواه ، فى جو أسرى حنون ، يشيع فيه الود ، وتـــملؤه السعادة ، وشـــتان مـــا بـــين الصورتين .

ونعلم من سيرة الرفاعى أنه كان أخا لتسعة من البنين والبنات [1] ، فلا أرى تحديـــده هنا عدد الإخوة باثنين ، إلا تقمصا لشخصية السجين ، وأنه شخص محدد قريب منه ، معـروف له ، وله أخوان ، وبذلك ذاب الشاعر فى شخصية صاحب الرسالة ، واكتملت للتجربة كافـــة عناصرها.

- ب -

السّجّـــان

١٣ـ٢٠

والصمت يقطعه رنين سلاسل ... عبثت بهن أصابع السجان

مـا بـين آونـة تمـر وأختـها ... يرنو إلى بمقلتى شيطان

مـن كـوة بالبـاب يرقـب صيـده ... ويعود في أمن إلى الدوران

أنـا لا أحـس بـأى حقـد نحـوه ... ماذا جنى فتمسّه أضغانى ؟

هو طيب الأخلاق مثلك يا أبى ... لم يبد فى ظما إلى العدوان

لكنـه إن نام عنـى لحظـة ...... ذاق العيال مـرارة الحرمـان

فلربمـا وهـو المـروّع سحـنةً ... لو كان مثلى شاعرا لرثـانى

أو عاد-من يدرى- إلـى أولاده ... يوما، وذكر صورتى لبـكانى

****

ينتقل الشاعر – بعد تصويره للمكان والزمان إلى الحديث عن (السجان) ، لتكمـل به الصورة ، وتتضح جميع جوانبها .

إن صمت السجن موحش ، وبخاصة فى حالة الحبس الإنفرادى ، والسـكون المطبـق الذى يشبه جو القبور ، يصيب النفس بالكآبة والملل ، فتتطلع إلى أى صوت يقطع هذه الرتابـة ، فلا يكاد يسمع إلا رنين السلاسل الحديدية فى يد السجان ...

صوت لا يقطع الوحشة ، بل يزيدها

ولا يزيل الكآبة ، بـــل يضاعفها

ويصور الشاعر حركة السجان ، غادياً رائحاً ، ليطمئن على فريسته كل حين ، وكلما حانت منه التفاتة ، ناحية باب الزنزانة أثناء مروره ، أرسل نظرة حادة ثاقبة ، من بـين حديـد الباب ، يلحظ الذى علقت به رقبته ، ويتوقف على وجوده فى القفص مصيره وحياته .

إنه سجان وسجين معاً ، مرهونة حياته بحياة سجينه ، وهو مرتبط به مـلازم لـه ، لا يكاد يفارقه ، إنهما سجينان فى الحقيقة ، سجين الزنزانة الحر ، وسجين الأوامـــر والوظـائف ولقمة العيش .

وفى لمحة إنسانية ، يصف العابد السجين مشاعره تجاه سجَّانه ، تلك المشاعر التى تسامت على الحقد والضغينة ، وارتقت إلى آفاق رحبة من التسامح ، لا يبلغها إلا العباد المخلصون ، بل إنه يرقى إلى أبعد من ذلك فيصفه بطيب الأخلاق ، ويبالغ فى وصفه فيشبهه بأبيه ، فهو غير عدوانى ، لكنها طبيعة المهنة ، فرضت عليه أن يكون سجَّاناً ، ويتخيله حين يعود إلى أولاده ، أو حين يخلو بنفسه ، باكياً متألما ، كلما ذكر محنة الشاعر السجين .

وتسامح العابدين عن ظالميهم خلق رفيع . القدوه فيه خير البشر – صلى الله عليه وسلم – الذى عفا عمن اضطهدوه ، وأرغموه على مفارقة وطنه ، حين قال لهم : " اذهبوا فأنتم الطلقاء " ، وقد سار على دربه فى العفو كثير ممن اقتدوا به ،حتى دعا بعضهم وهو على منصة الإعدام (اللهم سامحنى وسامح من ظلمنى) .

ونلحظ فى هذا المقطع تميز الرفاعى بالحس الإنسانى المرهف ، الذى يتجاوز الأحقاد ، وينظر إلى (الإنسان) باعتباره عرضة لضغوط متنوعة ، تدفعه إلى اقتراف ما لايرضاه ، أو الوقوع فيما يأباه طبعه الإنسانى .

-جـ-

حديث النفس وانتفاضة الهِمّة

٢١ـ ٤١

وعلى الجدار الصلب نافذة بها ... معنى الحياة ، غليظة القضبان
قد طالما شارفتُها متأملاً ... فى الثائرين على الأسى اليقظان
فارى وجوماً كالضباب مصوراً ... ما فى قلوب الناس من غليان
نفس الشعور لدى الجميع وإن هم ... كتموا، وكان الموت فى إعلانى
ويدور همس فى الجوانح ، ما الذى ... بالثورة الحمقاء قد أغرانى ؟
أو لم يكن خيراً لنفسى أن أرى ... مثل الجميع ، أسير فى إذعان؟
ما ضرَّنى لو قد سكتُّ ، وكلّما ... غلب الأسى بالغت فى الكتمان ؟
هذا دمى سيسيل يجرى مطفئا ... ما ثار فى جنبى من نيران ..
وفؤادى الثوار فى نبضاته ... سيكف فى غده عن الخفقان
والظلم باق ، لن يحطم قيده ... موتى ، ولن يودى به قربانى
ويسير ركب البغى ليس يضيره ... شاة إذا اجتثت من القطعان

****

هذا حديث النفس حين تشف عن ... بشريتى وتمور بعد ثوان
وتقول لى ، إن الحياة لغاية ... أسمى من التصفيق للطغيان
أنفاسك الحرى وإن هى أخمدت- ... ستظل تغمر أفقهم بدخان
وقُروح جسمك وهى تحت سياطِهم ... قسماتُ صُبح يتقيه الجانى
دمع السجين هناك فى أغلاله .. ... ودم الشهيد هنا - سيلتقيان
حتى إذا ما أفعمت بهما الرَبى ... لم يبق غير تمرد الفيضان
ومن العواصف ما يكون هبوبها ... بعد الهدوء وراحة الرُبان
إن احتدام النار فى جوف الثرى ... أمر يثير حفيظة البركان
وتتابع القطرات ينزل بعده ... سيل ، بلبه تدفق الطوفان
فيموج يقتلع الطغاة مزمجرا ... أقوى من الجبروت والسلطان

****

فى هذا المقطع ، يصور لنا الشاعر آخر لقطة من اللقطات الجزئية المكونـــة للصـــورة الكلية ، التى تبرز محبس الشاعر وقد تكونت هذه الصورة من العناصر التالية :

- المكان : زنزانة صخرية الجدران .
- الزمان : ليلة ، هى آخر ليلة يتوقع أن يحياها فى دنيا الناس .
- الأشياء : الحبل ، الجلاد ، السجان ، الفتات المر ، السلاسل ، باب الزنزانـــة الحديـــدى ، نافذتها الصغيرة ذات القضبان الغليظة ، وهو بذلك يحدد كمية الضوء والهواء الضئيلـــة ، التى تفلت من بين تلك القضبان ، إلى داخل الزنزانة المقرورة .
- الحركة والسكون : فى عالمى النفس والمادة معاً .

ففى عالم المادة يتمثلان فى الصمت الموحش ، والهدوء القاتل ، يقطعـــها ترتيلـــه لآى الكتاب العزيز ، مسترواحاً بها ، ورنين السلاسل الحديدية فى يد السجان ، ودورانـــه الدائب جيئة وذهاباً أمام الزنزانة راصداً للسجين ، ثم دخوله عليه ليقـــذف لـــه بمـــا يسمونه طعاماً .

أما عالم النفس فتتمثل فيه الحركة والسكون فى :

١- ذلك الانتظار الثقيل ، والترقب المفزع ، لشيئين أحلاهما مـــر ، إمـــا حبـــل وجلاد ، وإما مشنقة بيد المتسلطين على رقاب العباد .

٢- اصطراع الذكريات واضطرابها فى نفسه ، مما يؤدى به إلى طلب الراحـــة فى تلاوة كتاب الله عز وجل ، فيذوق لذة الإيمان .

٣- تلك الموازنة النفسية بين فتات تعطيه يد مصبوغة بدم الأبرياء ، ومائدة تمدهـا يد الأم الرؤوم ، ويشاركه فيها أخواه ، وما تثيره الموازنـــة مـــن شـــجون الذكريات .

٤- التربص والمراقبة من السجان ، وهو دائم الحركة أمام الزنزانـــة ، وذلـــك الاستبطان النفسى من الشاعر للسجان ، حين يصفـــه بـــأن (طيـــب الأخلاق) ، ويستفهم (ماذا جنى ؟) ، ويتخيله واحداً من الكثيرين الذيـــن غلبوا على أمرهم ، وهم كارهون لما هم فيه ، لكنهم يخشـــون .. يخشـــون سيف المعز .. ويرجون ذهبه ، فليس أمامهم إلا التنفيـــس عـــن شـــعورهم

المكبوت بالظلم عن طريق البكاء ، كلما تذكروا محنة المظلومـــين ، وتجـبر الظالمين .

بهذه الإطلالة السريعة ، على الصور الجزئية التى عرضها الشاعر ، تتشـــكل أمامنـا صورة كلية واضحة ، للنفس والواقع معا ، للأشياء والأشخاص والزمان والمكان والأحـــداث جميعا .

وأول أبيات المقطع الذى معنا يصور نافذة الزنزانة ، ونلمح وصف الشاعر للجـــدار بأنه (صلب) ! والصلابة تعد صفة مدح ، حين تكون فى ثغر يخشى إتيان العدو من جهتـه، أو قلعة تحمى البلاد من المعتدين ، ولكنها حين تكون أداة الظلم فى كتم الأنفاس ، وتكميم الأفـواه ، والتسلط على الأحرار ، فهى معول يهدم بنيان الأمة ، ويقوض أركانها .

وللكلمة إشعاع آخر ، فالصلابة تعنى القسوة ، وهى من هذا الجانب توحى بأن هـــذا الجدار لا يحبس فقط جسم السجين ، بل يكاد يجثم بكلكله على صدره ، ليكتـــم أنفاسـه ، ويقوض كل معنى للعزم أو الهمة أو المقاومة عنده ، وليدفعه دفعـــا ، إلى التســليم لجلاديـــه ، والرضوخ لقاتليه .

وتنوين (نافذة) وإفرادها منكرة ، ظواهر لها دلالتها ، فهذا الجـــدار .. بضخامتـــه وعلوه وصلابته ، قد أعد خصيصا ليحجب عن السجين الأعزل كل معانى الحياة .. الضـــوء .. الشمس .. الحركة .. النهار بكل ما يحويه ، وليطيل عليه أمد الليل .. الليـــل بكـــل إيحاءاتـــه ومعانيه أيضا .. الظلمة .. السكون .. الصمت .. الهموم والمتاعب .. إلخ .

على هذا الجدار (الصلب) بكل إيحاءات الكلمة ، نافذة ، وحيدة ، يتيمة ، صغيرة ، لا تكاد تسمح بمرور الضوء أو الصوت إلا بقدر ، وفى وقت محدود ، فكأنما النافذة قد تلقـــت أوامر – هى أيضا – بأن تكون أداة الحبس السجين وزيادة قيده ، ومضاعفة إحساســـه بهـــذا القيد .. وليست نافذة للضوء والشمس والحياة ، ككل نوافذ الدنيا .

ومع كل هذا .. فالنافذة ، لمجرد أنها تخرق حجاب الصمت والظلمة ، النـــافذة علـــى ضآلتها ، وضخامة قضبانها الحديدية ، النافذة الصغيرة هذه .. بها معنى الحيـــاة ، فـــهى تصـــل الســجين بعالم الطلقاء خارج السجن ، الأحرار فى حركـــة الأبـــدان ، لا فى معـــانى النفـــس واستشرافها ، وآمالها ، وتحقيقها لذاتها .

ومحاولة من الشاعر لاختراق الحجب الكثيفة المحيطة به ، يتسلق إلى نافذته الصغيرة ، متنفسه الوحيد ، ليطالع وجوه العابرين ، ويتأمل غليان النفوس الثائرة على الظلم ، ترتسم ملامحه على الوجوه الجامدة الواجمة ، ويحاول السجين أن يتسلى عن همه بالإحساس بأن هؤلاء يشاركونه همه وألمه ، وثورته المكبوتة ، وغضبه الدفين ، أو هكذا توهم ؛ وصور له خياله .

وهنا تتسلل إلى نفس الشاعر الوساوس ، تؤنبه على مجاهرته بالثورة ، وإعلانه التمرد ، وتعقد موازنة بينه وبين أولئك الطلقاء ، الذين يتمتعون بحرية الحركة خارج السجن ، وإن كانت مؤطرة بحدود لا تتخطاها، لكنها - على أى حال - صورة من صور الحرية .

ووصفه للثورة بأنها (حمقاء) يوحي بمبلغ الألم النفسى الذى تثيره تلك الموزانة ، بين داخل السجن وخارجه، بين القيد والانطلاق ، بين ظلمات الزنازين وأضواء النهار .

ويتشكل الأسلوب هنا بالشكل الإستفهامى ، الموحى بالإنكار واللوم ، ما الذى بالثورة الحمقاء قد أغرانى ؟ ! .. أو لم يكن خيراً لنفسى أن أرى مثل الجميع أسير فى إذعان ؟!

ما ضرنى لو قد سكتُ وكلما غلب الأسى بالغت فى الكتمان ؟

استفهامات متتابعة ، تكثف الشعور بالألم النفسىّ وتركزه ، وتوحى بجيوش الهموم التى هاجمت الشاعر فى تلك اللحظات .

وتتتابع الوساوس ، ويهدر حميمها اللاذع فى شكل موجات من الأفكار المثبطة ، والهواجس المقعدة ، فثورته العارمة سوف تنطفئ ، وقلبه المتوثب بالعزم سوف يسكن ، وستذهب تضحياته سدى ، وسيبقى الظلم عاتياً ، متسلطاً ، ماضياً فى طريقه ، لا يأبه لموت أحد ولا لحياته .

وهل يشغل الذئب اجتثاث شاة من القطيع الضالّ ؟

هكذا تسللت الوساوس إلى نفس السجين الممتحن ، فى ساعة من ساعات الغفلة ، ولكنها كانت الغفوة التى تتبعها اليقظة ، وسقطة الاستجابة للمثقلات والمثبطات ، التى تتبعها انتفاضة الهمة .

" إن الذين اتقوا إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون".[1]

---

(1) الأعراف / ٢٠١

والمقطع الذى معنا ، تصور أبياته ، حقيقة الصراع الذى يعتمل فى نفس كل مصلح ، صراع بين النفعية والأريحية ، بين راحة البدن وعزمات النفس ، بين شهوات اللحم والدم وهموم النفوس الكبار :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام

صراع أوجده كل نبى فى عهده ؛ وورثه العابدون المخلصون من بعدهم ، صراع هو علامة صحة النفس ، وآية اعتدال موازين القيم عندها ، فما تكاد تستجيب لتلك الوساوس حيناً حتى يدعوها داعى الهمة فتصحو من غفوتها وتعود لطبيعتها ، وتنتفض ملقية عن كاهلها ما علق بها من الهواجس والأباطيل ..

هذا حديث النفس ، حين تشف عن

بشريتى وتمور بعد ثوان

فإذا ما استبانت طريقها وانجلى عنها كابوس الوساوس المقلق ، تذكرت ما كانت الغفلة قد أنستها ، من المبادئ الكبار ، والهموم العظام ، التى لأجلها عاشت وفى سبيلها ضحت .

وأس هذه المبادئ الكبار : وجذرها الذى تنبع منه وتعود إليه ، هو فهم حقيقة الحياة ، والموت ، والخلود ، على وجهها الصحيح ، فهماً يتجاوز معنى اللحم والدم ، وحاجات البطن وشهوات النفس ، فهماً يتخطى اللحظة الراهنة ، واللذة العاجلة ، ودنيات الدنيا التافهة ، وسفاسفها الحقيرة ، إلى آفاق رحبة ، تستوعب الزمان والمكان ، وتسمو على الضرورات الملحة ، وتقوم بالواجب لأنه فى ذاته واجب ، ثم لأنه إرضاء لمن خلق الإنسان وكرمه ، حين جعله مهيّأ بطبيعته لأداء الواجب .

هذا الفهم هو الذى عناه " على الجارم " – رحمه الله – حين قال [1] :

إن الذى خلق الأبطال صورهم من ثورة البحر أو باس الصياخيد!!
يمشى الشجاع لحد السيف مبتسماً ويرهب الغمد ذعراً كل رعديد !
كم همة تفرع الأجيال سامقة وهمة ركدت بين الأخاديد
وكم فتى تسبق الأيام وثبته وللبطولة أفق غير محدود
وخامل ما لآثار الحياة به إلا ورود اسمه بين الموالـيد
وميت بعث الدنيا وعاش بها ما كل من ضمه قبر بملحُود

---

(1) ديوان الجارم جـ١ / ١٢٨ ، دار الشروق ، ١٩٨٦ .

ولعل هذا الفهم أيضا -- هو الذى عناه " شوقى " حين قال [1] :

كان الله إذ قسم المعالى ... لأهل الواجب ادخر الكمالا

ترى جدا ولست ترى عليهم ... ولوعا بالصغائر واشتغالا

وليسوا أرغد الأحياء عيشا ... ولكن أنعم الأحياء بالا

إذا فعلوا فخير الناس فعلا ... وإن قالوا فاكرمهم مقالا

وإن سألتهم الأوطان أعطوا ... دما حرا وأبناء ومالا

وفى ظل هذا الفهم تتلخص الحياة فى معنى كريم ومبدأ صحيح ، وواجب بمعناه الواسع . يعيش الحر من أجله ، ويموت فى سبيله ، وهذا الفهم تتركز فيه أخص خصائص " الإنسانية " فى (الإنسان) ، الكائن المكرم من خالقه، فإذا كانت حاجات الآدمى بحسب درجة ضرورتها ، قد رتبت عند علماء النفس ، بحيث كان " الأمان " أولها ، ثم " الطعام والتناسل " ، ثم " تحقيق لذات . فهذا المعنى الذى نحن بصدده ، هو قمة تحقيق إنسانية " الإنسان "..

هو أن تعيش خليفة فى الأرض شأنك أن تسود

وتقول " لا " و " نعم " إذا ماشئت فى بصر حديد .

هذا المعنى هو الذى يميز الإنسان عما سواه من الكائنات ، وهو بذاته الذى لأجله كرم . ولأجله حمل الأمانة من ربه .

" وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا ...... [2] " .

" إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها وحملها الإنسان ...... [3] " .

وبهذا المنظور لا تحسب أعمار الناس بالسنوات بل بالأعمال ، فهى التى بها يذكرون ، ولقد كان شاعرنا " هاشم الرفاعى " نموذجا للعمر ، القليلة سنواته ، الضخمة آثاره وأمجاده ، وقد قال أخوه " أحمد الرفاعى " فى مرثيته له [4] :

---

(1) ديوان شوقى ، تحقيق د. أحمد الحوفى حـ١ /٣٦٤ . د. نهضة مصر

(2) الأعراف / ١٧٢ .

(3) الأحزاب / ٧٣ .

(4) مقدمة الأعمال الكاملة / ١١

وما العمر طول السنين العجاف ولكنما العمر طول العطاء

والإنسان المكرم من خالقه ، والذى سخرت له الكائنات ، يجب أن يتبنى غاية علـى مستوى المكانة التى بوأه إياها ربه ، فيربأ بحياته أن تمتهن فى سبيل الشهوات ، أو تمرغ علـى أعتاب المتسلطين ، بل يدخرها لتكون ضريبة للعز فى الدنيا والرضوان فى الآخرة .

" إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة " (١) .

وفى مقابل وسوسة النفس المثبطة عن الواجب ، والمقعدة عن شرف الإصلاح ، فى أبياته عن النافذة وما بعدها ، نرى نداء الهمة ، وصيحة العزيمة ، تنبع من داخله ، فتتضح لـه الرؤية ، ويستقيم أمامه الطريق .....

أنفاسك الحرَّى وإن هى أخمدت ستظل تغمر أفقهم بدخان

وقروح جسمك وهو تحت سياطهم قسمات صبح يتقيه الجانى

إن دمه لن يسيل هدرا ، وروحه لن تزهق سدى ، بل ستكون دخانا ينبعث ليغمر أفق الظالمين ، فيضيق أنفاسهم ، ويقض مضاجعهم .

وجروح الجسد المضنى تحت التعذيب الطويل لن تضيع ، بل إنها ستشكل باجتماعها وجه الصبح الأبلج ، الذى تعتدل فيه الموازين ، ويوضع الحق فى نصابه ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

وهكذا تنقلب العناصر التى يراها الجبناء فصول محنة ، تنقلب عند ذوى البصائر معالم منحة ، ويرى السجين العابد خيوط الفجر المبين ، من بين أحناء الليل البهيم ، ويرى الفتن التى يتبع بعضها بعضا كقطع الليل المظلم ، يراها مبشرات بفتح جديد .

فإن سنة الله أن يعقب الليل الغاسق بفجر صادق ، وأشد ساعات الليل حُلكة هى التى تسبق بزوغ الفجر ، فإذا ما اشتدت المحن ، وتتابعت البلايا ، وتواترت الأزمات .....

إذا ما ازدحمت الآفاق باستغاثات المظلومين ، واستجارات المضطهدين وارتجت أبواب السماء لضراعة الثكالى ، واليتامى ، والأرامل ، وضجت الأرض شاكية إلى ربها ما تنط به من ظلم ابن آدم .....

---

(١) التوبة / ١١١ .

عند ذلك سيأتى أمر الله ، ويفور التنور مزمجرا ، تنُّور يتوقد من دموع ودماء ، دموع المعذبين ودماء الشهداء ، ينفجر مكتسحاً أمامه عروش المتجبرين ، ويقتلع جذورهم الهشة ، ليقذف بها فى أعماق الجحيم .

ويسوق الشاعر حديثة فى هذا المقطع ، على نسق الدعوى المشفوعة بالدليل ، ولذا نراه يفصل البيت التاسع والثلاثين عن سابقة ، حين يقول :

إن احتدام النار فى جوف الثرى ... أمر يثير حفيظة البركان
وتتابع القطرات ينزل بعده ... سيل يليه تدفق الطوفان

فيقدم من الطبيعة الحية ، دليلا واقعيا لدعواه ، بأن دموع السجناء ودماء الشهداء ، إنما هى مبشرات للعابدين بنصر قريب ، ومنذرات للطاغين بنهاية وشيكة .

فالبركان المتفجر إنما انبعث من نار محتدمة ، احتبست تحت أطباق الثرى ، والسيل الجارف إنما تكون تياره الهادر من قطرات تتابعت وتجمعت حتى صارت شلالاً يقتحم ما يعترضه ...

تلك حقيقة تنطق بها قوانين الكون فى عالم المادة ، وهى - بذاتها - تحكم قوانين الاجتماع فى عالم النفس البشرية .

وبهذه الحقيقة يختم الشاعر تلك الجولة ، مع المثبطات مداً وجزراً ، صعوداً وهبوطا ، استجابة ورفضاً .

- ٥ -

أنفة وإباء

-٤٢ـ ٤٧

أنا لست أدرى هل ستذكر قصتى		أم سوف يعروها دجى النسيان ؟
أو أننى سأكون فى تاريخنا...		متآمراً أم هادم الأوثان
كل الذى أدريه أن تجرعى		كاس المذلة ليس فى إمكانى
لو لم أكن فى ثورتى متطلباً		غير الضياء لأمتى لكفانى
أهوى الحياة كريمة،لا قيد، لا		إرهاب، لا استخفاف بالإنسان
فإذا سقطت سقطت أحمل عزتى		يغلى دم الأحرار فى شريانى

****

فى هذا المقطع القصير ، يتحدث الشاعر عن هاجس يدور بخلد كل مجاهد صادق ، ووطنى غيور ، إنه نكران التضحيات ، وتشويه السيرة ، وطمر معالم الجهاد التى رواها بدمعه ودمه .

وتاريخ البشر حافل ، بكثيرين ممن قدموا التضحيات الجسام ، ثم جُوزوا جزاء سنمار ، ويرد هذا الخاطر على السجين فى أتون المحنة ، وفى انتظار ليلة الإعدام ، فلا يفزع كثيراً ، لأنه يعلم أن هذا ديدن البشر ، فقد يصبح بطلاً من كان يهاب غمد السيف فارغاً ، وينام داخل الحيطان خوفاً وفزعاً ، ويصمت صمت القبور إذا حلت الملمات ، ويبخل عن وطنه إذا وجب البذل وحقت التضحيات .

وعلى العكس قد يُعد خائنا وناكثا للعهد ، وقاعداً عن شرف التضحية ، وأفاكا أثيما ، وفاراً من الميدان من قدم ماله وأهله ودمه فداءً لوطنه ، وثمنا للدفاع عن حرية الإنسان كرامته .

وكم أهيل تراب النسيان على أعلام كانوا منارة الأمة ، بينما رفعت فى عنان السماء أسماء لخاملين ، قصيروا الباع ، موتى الهمة .

وفى مثل هذه الأجواء – التى يخشاها الشاعر – تأسن الحياة ، ويحمد الموت ، ورحم الله أبا العلاء ، فقد رسم لمثل هذه الحال التى تنقلب فيها المعايير وتنتكس الموازين – أوضح صورة حين قال [1] :

إذا وصف " الطائى " بالبخل " مادر " وعير " قسا " بالفهامة " باقل "
وقال " السها " للشمس ، أنت خفية وقال الدجى للصبح ، لونك حائل
وطاولت الأرض السماء سفاهة وفاخرت الشهب الحصى والجنادل
فيا موت زر إن الحياة ذميمة ويا نفس جدى إن دهرك هازل

يسوق الشاعر هذا الهاجس فى صورة استفهامية ، تنم عن حيرة وأسى ، وتوقع لنكران الجميل وإهدار التضحيات .

هل ستذكر قصتى ..... ؟

يعلمها الآباء لأبنائهم وترضعها الأمهات مع اللبن لأطفالهن ، وينشدها الصغار فى مدارسهم فخارا واعتزازا ، ويتذاكرها الكبار فى ملماتهم تأسيا واقتداء أم سوف يعروها دجى النسيان ..... ؟

ومن المعلوم أن " أم " المعادلة ، إنما تأتى بعد الهمزة ، فلم عدل الشاعر عن الهمزة إلى " هل " ؟

إن الهمزة حرف حاد ، احتكاكى ، متعب لأعضاء النطق ، حتى مال بعض العرب وبعض القراءات القرآنية إلى تسهيله ، هروبا من هذا الجهد الذى يتطلبه ، هذا إلى أنه حرف واحد .

وشدة حرف الهمزة جعلت السجين المضنى ، المعذب النفس والبدن معا ، يميل عنه إلى " هل " ذلك المقطع المغلق ، المنتهى بساكن تستريح معه أعضاء النطق ، ثم إنه مكون من " الهاء " وهى أخف من الهمزة كثيرا وأضعف ، واللام وهى حرف رقيق لين ، والوقوف عليه بالسكون يشعر بحالة من الإسفنجية المطاطة ، يلوح فيها الأمل الكابى ، و الأمنية الضائعة ، والنفس المحبطة ، تجاه ما تتوقعه من نكران ونسيان .

---

(1) شروح سقط الزند،جـ٢ / ٥٣٣،تحقيق مصطفى السقا وآخرين،الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٧ . ط ٣١

وفى " دجى النسيان " ترى ظلمات المجهول ، وغياهب الآبار السحيقة ، تلك التى يرمى فيها كل مطرود غير مرغوب ، كما ألقى إخوة يوسف يوسف فى البئر علهم أن ينسوا أباهم ذكر يوسف .. وهيهات ... ، ثم رمى به العزيز فى السجن إسكاتاً للألسن وإسدالاً للستار على فضيحة زوجته التى راودت فتاها عن نفسه ...

ولكن ... لابد للحق أن يظهر ، وللحقيقة أن تتضح .....

تظهر وإن طال الزمان وتكاثف النسيان ، كما حدث ليوسف ، فشهدت له امرأة العزيز بالبراءة وعلى نفسها بالمراودة . وسجد ليوسف إخوته ، واعترفوا له بما اجترموا فى حقه .

وبرغم ما يترقبه السجن من تشويه لتاريخه ، وطمس لسيرته ، وقلب للحقائق فى قصته ، فإن ذلك كله لا يعنيه ، بقدر ما تؤرقه وتشغل باله ، قضيته ، التى لأجلها عاش وفى سبيلها ضحى ، قضية الكرامة والحرية للإنسان ......

كل الذى أدرية أن تجرعى   كاس المذلة ليس فى إمكانى

" كل الذى أدريه " هكذا تمحورت كل إشعاعات المعرفة عنده ، وتركزت اهتماماته وجهوده ، وتبلورت حياته كلها ملخصة فى هذا المبدأ ... (أن تجرعى كأس المذلة ليس فى إمكانى)

إنها نفس حرة ، ترفض الذل وتأبى الضيم ، وتدفع ضريبة العزّ راضية مرضية ، نفس غلبت موت الكرامة على حياة المهانة ، وتضحية الأبطال على نفعية الأذيال ، وللعز ضريبة ، وللذل ضريبة ، ولابد للمرء من دفع أحدهما .

واهم ذلك الذى يظن أنه ناج من دفع ضريبة فى الحياة ، وانه سيهنأ بها دونما منغصات [1]

تصفوا الحياة لجاهل أو غافل   عما مضى فيها وما يتوقع

ولمن يغالط فى الحقائق نفسه   ويسومها طلب المحال فتطمع

وأصحاب النفوس الأبية فى كل عصر ، هم الذين يأنفون من كل ما يجرح الكرامة أو يسقط المروءة . ويقتحمون ميادين العز والشرف برجولة وإقدام مهما كلفهم ذلك من

---

(1) ديوان المتنبى جـ / ٣٩٩ تعليق د. عبد الوهاب عزام ، دار الزهراء ، بيروت ، ١٩٧٨

تضحيات وقديما دفع يوسف ضريبة العز ، وأبى الخروج من السجن حتى تبرأ ساحته، ونال مكانة الأصفياء لا موقع الأتباع والندماء ((أستخلصه لنفسى ...)) [1]

ورحم الله " الشريف الرضى " ، الذى ضاق بحياة التحلل ، وروح التخنث الشائعة فى أخريات العصر العباسى ، فقال [2] :

يا نفس من هم إلى همة فليس من عبء الأذى مستراح
الراح والراحة ذل الفتى والعز فى شرب ضريب اللقاح

ومن عجيب المصادفات أن نجد " راح الذل " عند " الشريف الرضى " تقابل (كأس الذل) عند " هاشم الرفاعى " .

والشريف يجمع الراح مع الراحة ، وكلاهما مؤنث باللفظ ، والمعنى ، أو بالمعنى وحده ، ويجعلهما سبب الذل ، بينما العز كامن ومستقر ومؤكد فى شرب معين الفطرة الصافى ، وسقاء اللبن الربانى الخالص ، الذى لم تمسسه يد بشر .

أما الراح فقد أفسدها البشر أولا حين حولوها من عنب طيب إلى خمر خبيثة ، ثم أفسدوا بها العقول والحياة ثانيا حين شربوها .

ولقد فطر الله النفس البشرية على العزة والكرامة ، ولكن الإنسان هو الذى يفسد تلك النفس بإخضاعها لغير بارئها ، خوفا وطمعا ، فيجعلها تقبل جرعات الذل ، جرعة جرعة ، حتى تتشبع به ، ومن هنا كان هذا التعبير (تجرعى كأس المذلة) .

ويكفى السجين الثائر عزة وفخارا ، أنه بتضحياته ، إنما رام مرقى عليا ، حين ابتغى لأمته الرفعة والمكانة ، وأراد لأفرادها أن يعيشوا أحرارا ، بلاخوف أو مهانة .

فإذا بلغت التضحيات غايتها ، وسقط شهيدا فى ميدان الكرامة والشرف ، فإن ذلك هو تاج التكريم ، ووسام التقدير لتضحياته ، التى قدمها إرضاء لله ، وأداء للواجب ، إن خير عزاء له ، أنه إن نسى فى عالم البشر ، فسيذكر فى خير ملأ ،عند رب العالمين .....

وإن عد فى دنيا الناس ميتا ، فإنه عند ربه متجدد الحياة فى جنان الخالدين (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون) [3] .

---

(1) يوسف / ٥٤ .

(2) ديوان الشريف الرضى جـ١ / ٢٥٤ دار صادر ، بيروت .

(3) آل عمران / ١٦٩ .

- هـ -

الصبح بين مطلعين

٤٨ ـ ٥٥

أبتاه إن طلع الصباح على الدنى ... وأضاء نور الشمس كل مكان
واستقبل العصفور بين غصونه ... يوما جديدا مشرق الألوان
وسمعت أنغام التفاؤل ثرة ... تجرى على فم بائع الألبان
وأتى يدق - كما تعود - بابنا ... سيدق باب السجن جلادان !
و أكون بعد هنيهة متارجحا ... فى الحبل مشدودا إلى العيدان
ليكن عزاؤك أن هذا الحبل ما ... صنعته فى هذى الربوع يدان
نسجوه فى بلد يشع حضارة ... وتضاء منه مشاعل العرفان
أو هكذا زعموا، وجيئ به إلى ... بلدى الجريح على يد الأعوان

****

ينتقل الشاعر فى هذا المقطع إلى لقطة تصويرية جديدة ، يظهر من خلالها مدى ما تحوى هذه الحياة من مفارقات .

فكم يحمل مطلع كل شمس من بشائر إلى قوم ونذر إلى آخرين ، وفرحة عند فئة وترحة عند أخرى .

وها هو الشاعر يسجل بآلته التصويرية ، تلك اللحظة النفسية ، التى كان يستشعرها السجين كل صباح ، كلما غمر الوجود نور الشمس ، وتفاءلت الدنيا بيوم جديد .

وبدء هذا المقطع بالنداء (أبتاه) ، الذى افتتحت به القصيدة ، إلماح إلى أن هناك جانبا من جوانب التجربة ، ينتقل الشاعر إليه ، وعنصرا من عناصر محنة السجين ، عظيم الأثر كبير الخطر ، فقد صور الشاعر فيما سبق الزمان ، والمكان ، والأشياء فى زنزانة السجين ، لكنه لم يتعرض لما يلقاه السجين من عذاب بدنى ، إضافة إلى الآلام النفسية المبرحة .

فلذا يستفتح استفتاحه جديدة ، ويكرر نداء المطلع مرة أخرى ، ثم يبدأ أبياته بصورة مشرقة ، موحية بكل معانى البهجة والتفاؤل ؛ بحيث تصعد معها النفس إلى قمة المنحنى سرورا و أملا . . .

أبتاه إن طلع الصباح على الدنى وأضاء نور الشمس كل مكان
واستقبل العصفور بين غصونه يوماً جديداً مشرق الألوان
وسمعت أنغام التفاؤل ثـرة تجرى على فم بائع الألبان
وأتى يدق - كما تعود - بابنا - - - - - - - - - - - - - - - -

حشد الشاعر فى هذه الأبيات كل معالم الحياة المتجددة ، الصباح المتنفس ، والشمس ساطعة ، والعصفور الغريد بين غصونه وفى عالمه ، والألوان المبهجة للزهور فى الحدائق ، كل هذا فى عالم غير البشر ......

وحين يعود إلى عالم البشر ، يسجل مظهر البشر ، فيسمعنا أنغام التفاؤل ، الحانية الودود ، يترنم بها بائع الألبان ، كأنما يوزع بها مشاعر السرور ، وينقلها من باب إلى باب ، ومن شارع إلى شارع ، أينما انتقل وحيثما سار .

ونلاحظ أن الشاعر قد استخدم قدرته التصويرية الفائقة ، فى رسم ملامح لوحة الصباح المشرق ؛ فالصباح يطلع على (الدُنى) ، بصيغة الجمع ، ليست دنيا واحدة ، بل صارت من بهجة الإشراق ، ومن شعور النفس الفرحة باتساعها – دُنىً متعددة ، فسيحة متنوعة .

نعم هى دُنىً ؛ دنيا الكون بسمائه وأرضه وشمسه وهوائه ، ثم دنيا الطيور بأنغامها ، وألوانها ، ثم دنيا الزهور ، بشذاها وعبقها ، ولا يزال عليها أثر الندى ، وفى النهاية دنيا البشر ، السعداء ببساطتهم ، ونظرهم المتفتحة ونفوسهم الراضية .

ويضيف الشاعر مساحة اتساع جديدة ، للأفق المنظور ، باستعماله كلمة (كل) فى الشطر الثانى ، مضافة إلى (مكان) ، فلا يكاد يترك ضوء الشمس مكاناً إلا غمره بالنور ، وأشاع فيه الإيجابيه والحركة .

أما عالم الطير ، فإن الشاعر يختار من بينها " العصفور " ، الرقيق ، الوادع ، بتغريداته العذبة ، وزقزقاته المتتابعة ، الراقصة .

وذلك التحديد لمكان العصفور (بين غصونه) ، فى بيته ، حيث الراحة ، والمرح ، واللعب ، والتغريد ، والسعادة بألوانها .

ووصف اليوم بأنه (جديد) ، إيحاء بلذة جديدة ، وسرور مضاعف ، فإن الشـــيئ لا يفلح فى أن يجعلك مبتهجا به ، إلا إذا استطاع أن يظهر فى عينك جديدا ، فلكل جديد فرحـــه تولد معه .

واختيار (بائع الألبان) من بين عالم البشر ، له دلالته ، إذ هو نموذج للبشر البسطاء ، الذين لا تزعجهم غموم الأمس ، ولا تقلقهم هموم الغد ، فهم يعيشون اليوم والساعة ، مطمئنـه نفوسهم ، متوكلة قلوبهم ، وإن قل فى الدنيا متاعهم ومالهم ، وبمثل هذه النفس يجد المرء طعـــم السعادة .

ووصف (أنغام بائع اللبن) بأنها (ثرة) ، وإضافتها إلى (التفاؤل) ، يعطـــى لهـــذه الأنغام عمقا واتساعا فى أثرها على النفس ، أما عمقها ففى مضمونهـــا المستبشـــر ، ومعانيـــها المضيئة للنفوس ، وأما اتساعها ، ففى ذلك التحدر السهل السلس ، على لسان اللبان ، دونمـــا تكلف أو تعمل ، أو تفاصح ، يؤكد هنا وصف الأنغام بأنها (تجرى) ، كجريان النـــهر العـــذب على السهول ، جريا تلقائيا طبيعيا

وتعدية الفعل (تجرى) بحرف الجر (على) دون (فى) أو (من) ، يؤكد مســـــحة التلقائية وعدم التكلف فى الأنغام ، فكأن هذه الأنغام تصدر وحدها ، وتتحدر على فمـــه ، دون أن يقصد إلى الغناء قصدا ، بل تلك طبيعة المكان والزمان توحى إلى النفس فتغـــنى ، غناءهـــا العذب الودود .

ويصوغ الشاعر هذه الصورة الجميلة البارعة للصبح المتفائل الطـــروب ، فى صيغـــة شرطية تأتى الأداة (إن) فى بداية البيت الأول ، ويطول الشرط لكى يستوعب كـــل صـــور الإشراق والجمال والتفاؤلية فى الصباح ، وليصعد به الشاعر فى نفس المتلقى هذه المعانى جميعـــا ، حتى يبلغ بها الغاية ، فإذا بلغ الغاية .....

وأتى يدق كما تعود بابنا ...

يطوف الشاعر بنفس المتلقى ، من الصبح الوضيئ ، والشمس المبهـــــجة ، والطـــير الغريد ، والزهر الشذى ، ثم يختم بعالم البشر فى إحدى لحظات السعادة النادرة فيه متمثلـــة فى أنغام بائع اللبن .

فإذا ما اقتربت تلك السعادة ، من باب الأسرة ، وإذا ما اكتملت معانى البشر بـالرزق المسوق إضافة إلى الصبح البهيج ...

إذا ما بلغت الصورة المشرقة غايتها ، جاء جواب الشرط بالمفاجأة المفزعة ، المباغتة .

فحين يدق بائع اللبن باب الأسرة حاملاً الخير والبشر ، يدق باب الزنزانـــة جـــلادان يحملان العذاب و الألم !!! ما أعجب المفارقات فى هذه الحياة ، وما أشد ما تحويه من متناقضات .

ويتقن الشاعر الصنعة الفنيه ، فى تحديد ساعه الصفر ، ونقطة المنحنى ، الـــتى تلتقـــى عندها الصورتان ، المبشرة المبهجة ، والكابية الحزينة ، ليضاعف مـــن الإحســـاس بالأســـى ، والإشفاق ، من تلك المفارقة الصارخة ،

فيستخدم الفعل (يدق) بصيغة المضارع كما هى ، فى شطرى البيت :

وأتى يدق كما تعود بابنا ... سيدق باب السجن جلادان !

ولكن شتان بين متعلقات الفعل وإيحاءاته فى الشطر الأول ، وبين متعلقاته فى الشـــطر الثانى . وكأننا – بتلك الصنعة الفنية البديعة – أمام إحدى الآلات التصويرية ، الـــتى تســـجل الصورة والصوت معاً ، فبينما ترينا زقزقة الطيور ، وألوان الحبور ، وبعـــد أن تفعـــم نفوســـنا بمشاعر البهجة والسرور ، إذا بالصورة قد أظلمت ، وإذا بالفضاء الفســـيح المشـــرق بضـــوء الشمس قد تحول إلى حجر ضيق مظلم ، كئيب ، وإذا بالأنغام الثرة والزقزقات العذبـــة ، قـــد استبدلت برنين السلاسل ، وصرخات المعذبين ، وإذا بابتسامات الوجوه الفرحة ؛ قد تحولـــت إلى اكفهرار وجوه السجانين الكالحة .....

وهذا الإبداع ، فى هذه الصورة ، هو عنصر أصيل من عناصر الارتقاء الفنى ، فى هـذه النونية ، وهو بعض ما جعلها تتسنم الذروة إعجاباً وإبهاراً ، لدى النقاد والمتلقين .

ونرى المتقابلات فى الصورتين تزيد المضمون وضوحاً وتأكيداً ؛

ففى مقابل نور الشمس نجد ظلمة السجن ، وفى مقابل (الدُّنى) الفســـيحة ، نـــرى جدران الزنزانة الضيقة ، وإذا كان العصفور فرحاً مرحاً بين غصونه . وفى وكره ، فإن الشـاعر غريب سجين ناءٍ عن أهله وأحبابه .

ويوظف الشاعر عنصر (الحبل) من بين عناصر صورته ، ليضيف به مضموناً جديداً . لعله يخفف من حدة الشعور بالأسى ، لدى الوالد المعذب ... وهيهات .....

ليكن عـزاؤك أن هـذا الحبـل مـا صنعتـه فـى هـذى البـلاد يـدان
نسـجوه فـى بلـد يشـع حضـارة وتضـاء منـه مشـاعل العرفـان
أو هكـذا زعموا ....

" والحبل " هنا رمز لقضية الحرية ، فكأن الشاعر يعد الكبت والقهر والسجن ، صوراً غريبة عن مجتمعنا ، مستوردة من بلاد أخرى ، يزعمها الناس بلاد حضارة ، لكنها لا تنقل لنا من مدنيتها إلا كل خبيث .

- ٩ -
مواساة وتسلية
٥٦ ـ ٦٧

أنا لا أريـدك أن تعيـش محطمـاً ... فـى زحمــة الآلام والأشجــان
إن ابنـك المصفــود فــى أغــلاله ... قد سيق نحو الموت غير مُدان
فــاذكر حكايــات بأيــام الصبــا ... قد قلتـها لى عن هوى الأوطان
وإذا سمعت نشيج أمى فى الدّجى ... تبكى شبابا ضاع فـى الريعان
وتكتـم الحسـرات فــى أعماقــها ... أملــا تواريــه عــن الجــيران ..
فاطلب إليـها الصفـح عنـى إننـى ... لا أبتغى منـها سـوى الغفـران
مـازال فــى سمعـى رنـين حديثـها ... ومقالهــا فــى رحمــة وحــنان
أبنــى ، إنــى قــد غــدوت عليلــة ... لم يبق لى جلد على الأحـزان
فـاذق فـؤادى فرحـة بـالبحث عـن ... بنت الحلال ودعك من عصيانى
كــانت لهــا أمنيــة .. ريــانة ... يا حسن آمــال لها وأمـــان !
غزلـت خيـوط السـعد مخضـ لأولم ... يكن انتقاص الغزل فى الحسبان
والآن لا أدرى بــــــاى جوانـح ... ستبيــت بعدى أم بأى جَنان؟

قص السجين على والده قصته ، ورسم من خلال الأبيات السابقة صورته ، وبعـد أن انتهى إلى قمة مأساته ، وأفضى بذات نفسه ، وأفرغ الشحنات التى كانت تعتمل فى داخلـــه . أخذ يخفف من آثارها على والديه .

فبرغم الكم الهائل من الهموم المؤرقة ، والأحداث المشجية التى حملتها رسالته إلى والــده ، يأمل أن يكون لدى الوالد طاقة وصبر ، يتسعان لتحمل هذه الآلام ، والتعزى عنها .

أنا لا أريدك أن تعيش محطّما ... فى زحمة الآلام والأشجان

وإذا كان الطائر المحلق يستريح هنيهة بالإسفاف ، فإنا نرى الصياغة هنا قــد هبطـت بالشاعر ، فإن الانتقال من الإبداع والتصوير التى حملتها الأبيات السابقة ، إلى الأبيات الـــتى معنا ، يبرز البون البعيد بينهما .

فابتداء الشاعر هذا المقطع بقوله (أنا لا أريدك) ، هكذا فقط ، مجردة من التوصيف للمتحدث والمخاطب ، فالمتحدث هو الابن ، والمخاطب هو الأب ، بكل ما بينهما من عواطف ومشاعر ، أججها وكثفها تلك الأحداث التى ساقتها الرسالة .

هذا البدء – فيما أرى – يعد على غير مستوى التجربة ، الساخنة الملتهبة . وربما كان من الأولى أن يكون البدء (لا أطيق أن أراك متألما) أو (أعلم مقدار ما سببته لك من ألم برسالتى هذه) .

والسر فى هذه السقطة الأسلوبية – فيما أرى – هو أن هاشماً كان يكتب على لسان السجين ، ولم يكن هو السجين ، وقد استطاع الشاعر أن يعيش آلام السجن وعذابه ، وأن يصور مشاعر الخوف والضيق والقلق ، لأن حياته القصيرة لم تخل من هذه اللحظات ، فكثيراً ما تعرض للفصل من الدراسة وللتهديد والوعيد ، بسبب رأيه الحر : وإبائه وكرامته .

لكن الشاعر حين انتهى من تقمص شخصية السجين الثائر ، وبدأ فى تقمص شخصية الابن المشفق على والده من ضغوط المحنة وأحزانها ، لم يستطع أن يظل على المستوى المتألق تعبيراً وتصويراً ، ذلك لأنه ليس هو الابن ، وليس والده ذلك الأب ، وإنما هو يحكى عنهما (وليست النائحة كالثكلى) .

ومع ذلك ، فنحن لا نكاد نجد فى قصيدة الرفاعى ، موطنا يظهر فيه الفارق بين الشاعر والسجين وإلا هذا .

ويؤكد ما ذهبنا إليه – من أنه كان فى تعزِيَته للأب – على غير المستوى المبدع فى القصيدة كلها ، أنه فيها يقرر حقائق ، أكثر مما يفضى بمشاعر ، نرى ذلك – مثلا – فى قوله :

إن ابنك المصفود فى أغلاله .. قد سيق نحو الموت غير مُدان

ففى (ابنك) بهذه الإضافة ، ما يشعر بأن هذا الابن غير الشاعر ، وما يصدق الرواية القائلة بأن القصيدة كتبت على أثر رسالة جاءت إلى هاشم من صديق ينتظر حكم الإعدام ، وذلك الصديق كان يود أن يبعث هاشم إلى والد السجين بما يعزيه ويثبته [1] ، فكان هذا المقطع استجابة لنداء الصديق السجين

---

(1) ينظر مقدمة ديوان الرافعى : بتحقيق عبد الرحيم الرافعى / ٦٢

ثم ... هل يكفى فى توصيف براءة الحر – المسجون ظلماً ، المدافع عن قضية الكرامة والحرية لكل إنسان – هل يكفى فى توصيفها أن يقال (غير مُدان) . وهذا التوصيف فى ذاته يومى بشبهة الإدانة ، ويُلقى بظلها من بُعد وإن نفاها .

إن قضية الحرية ، هى قضية كل ذى رأى ، يحرص عليها ويضحى فى سبيلها ، ولذا كان حديث الشاعر عنها قوياً ، مؤثراً ، محلقاً فى سماوات الإبداع ، لأنها قضيته ، التى تبناها منذ الصغر ، وقضى فى مناصرتها سنوات عمره ، وتعرض لكثير من العنت والضيق لأجلها ، ولعله قضى نحبه فى النهاية ثمنا لتمسكه بتلك القضية ودفاعه عنها .

ونرى نَفَس الشاعر لم يطل فى مواساة الوالد ، إذ لم يتعد الأبيات الثلاثة ، والتى ذكره فى نهايتها بما غرسه الأب فى نفس الابن منذ الصغر ، من حب الوطن والولاء له .

ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى أمه ، التى مزقها الألم وأضناها الأنين ، حزنا على ولدها السجين ، وهى تحاول إخفاء أحزانها ، لتظهر بمظهر الصابرة التى لم تزلزلها المحنة ، ولم تفل من عزيمتها النكبات .

وهنا نرى تلك اللمسة الإنسانية الحانية من السجين تجاه الأم الرؤوم التى فجعت فى ولدها ، وتلتقى هنا مشاعر كل من المبدع (هاشم) و (السجين) ، حيث يحكى الشاعر أمنيات الأم ، وهى فى الحقيقة – أيضا – أمنيات لوالدة الشاعر ذاته ، فلطالما تمنت أمه التى فجعت بمصرعه ، أن تراه فى بيت الزوجية ، فيتحقق لها بذلك غاية المنى .

إن السجين لا يزال يسمع حديث الأم ، المشفقه ، وهى تعيده عليه بإلحاح ودون ملل ، مستخدمه التعلل بالمرض وتقدم السن وسيلة للتأثير على الابن المدلل ،

ولكن ...

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

فلم تدع الأيام تلك الأمنيات لتحقق ، وأتت على ما نسجته الأم فى خيالها الحالم لوليدها فنقضته ،

وتكاد تلمح عين الشاعر والسجين معاً ، وهما يذرفان الدمع على تلك الأمنيات التى ضاعت ، وعلى الأم التى لم تتحمل فراق ولدها ، فكيف بها لو علمت باعدامه ؟ !!

والآن لا أدرى باى جوانح ستبيت بعدى أم باى جَنان ؟

والاستفهام هنا يحمل فى طياته حزنا عميقا ، وأسىً بالغاً ، يشارك فى تكثيف هذه المشاعر التعبير بـ (لا أدرى) دلالة على الحيرة ، وضياع الحيلة ، ومن بعدها تكرار الصيغة الاستفهامية (بأى) ، واختيار كلمة (ستبيت) إشارة إلى مرور الأيام والليالى ثقيلة مريرة ، و المبيت يكون ليلاً ، والليل وقت اجتماع الهموم والكروب على نفوس المكروبين .

- ز -

تطلع وأمل

٦٨ - ٧١

هذا الذي سطرته لك يا أبى	بعض الذى يجرى بفكر عان
لكن إذا انتصر الضياء ومزقت	بيد الجموع شريعة القرصان
فلسوف يذكرنى ويكبر همتى	من كان فى بلدى حليف هوان
وإلــى لقاء تحت ظل عدالة ..	قدسيــة الأحكام والميــزان

****

يأبى الشاعر الحر ، والسجين الثائر ، إلا أن يخرج من معركته مع ظالميه منتصراً مرفوع الهامة .

يأبى إلا أن يهتف بصوت الحق بين طبقات الباطل ، وأن يستخرج شعاع الفجر من بين ظلمات المحنة ، وأن يخرج من المعركة مبتسماً برغم الأحداث المريرة ، والوجوه الكالحة ، أملا فى غدٍ أفضل برغم إحاطة الظلم به ، وضغوط المتسلطين عليه .

فإن نسيه الناس اليوم فلسوف يذكره الأحرار غداً ، الذين طالما ذاقوا من مرارة الظلم وفجور الظالمين .

ولقد علّمنا ديننا ألا نيأس ، مهما طال الليل واشتدت ظلماته (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) [١] ، وعلمنا أنه لن يغلب عسر يسرين (فإن مع العسر[٢] يسراً إن مع العسر يسراً) .

وقد كان نبينا – ص – يزرع الأمل فى نفوس أصحابه ، فى أحلك الظروف ، (والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم قوم تستعجلون) [٣] قال هذا لخباب – رضى الله عنه – وقد جاء يشكو

---

(١) يوسف / ٨٧ .

(٢) الشرح / ٥ ، ٦

(٣) جزء من حديث نبوى شريف رواه البخارى ، ينظر : دليل الفالحين : محمد المكى جـ / ١٧٦ ، دار الكتب العلمية .

عذاب المشركين واضطهادهم ، وكان يبشر أصحابه يوم الخندق - برغم حصـــار الكـافرين وخيانة اليهود واشتداد المحن - يبشرهم بفتح فارس والروم واليمن .

فإذا لم يستطع العابد تحقيق أمله فى دنيا الناس ، وإذا فاته أن يرى مصـــارع ظالميـه : فليست هذه نهاية المطاف ، بل إن هناك من وراء هذه الدنيا ، محكمة قدسية ، تضـــع الحـق فى نصابه ، وتعتدل عندها الموازين ، ويقتص فيها كل مظلوم من ظالمه (اليوم تجزى كل نفس بمـا كسبت ، لا ظلم اليوم ، إن الله سريع الحساب) [1] .

---

(1) غافر / ١٧ .

المراجع

- أبو العلاء المعرى : سقط الزند ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، ط ٣ ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٧ .
- أحمد شوقى : ديوانه ، تحقيق د . أحمد الحوفى ، دار نهضة مصر .
- الشافعى (محمد بن إدريس) : ديوانه ، مكتبة ابن سينا ، القاهرة .
- على الجارم : ديوان الجارم ، دار الشروق ، ١٩٨٦ .
- مجدى الشهاوى : رسالة فى ليلة التنفيذ للشاعر هاشم الرافعى ، مكتبة الإيمان بالمنصورة .
- د. محمد داود : هاشم الرفاعى اغتراب وألم ، مطبعة الأمانة ط١ ، ١٩٩١
- محمد كامل حته : ديوان هاشم الرفاعى ، ط وزارة التعليم .
- هاشم الرفاعى : الأعمال الكاملة ، تحقيق عبد الرحيم الرفاعى ، ط١ مكتبة الإيمان بالمنصورة ، ١٩٩٦ .
- الدوريات :
  - مجلة كلية اللغة العربية بدمنهور ، العدد السادس .